

بين الوطنية والأمية

للأستاذ ساطع بك الحصري

مدير الآثار بال عراق

— ٢ —

—>>><<<—

تصوروا أيها السادة أن هذا المفكر الذي استرسل في التحمس إلى القومية الألمانية بهذه الصورة الهجسية ، كان قد ظل بعيداً عن التفكير في الوطن والوطنية حتى نكبة « يه نا » الألمية ... إنه تجاوز المقد الرابع من عمره ، ولم يكتب كلمة واحدة عن الوطن والوطنية ، مع أن أبحاثه الفلسفية كثيراً ما كانت تتناول مسائل الحياة الأخلاقية والاجتماعية ... بل بعكس ذلك ، أظهر ميلاً واضحاً نحو النزعة العالمية حتى أنه في أحد الدروس التي ألقاها في الثانية والأربعين من عمره — احتقر « الدين برون وطهم في الأرض والأنهر والجبال » ، فقال : « إنني أسأل : — ما هو وطن الأوروبي المسيحي المتمدن حقيقة ؟ — هو أوربا بوجه عام ، والدولة الأوربية التي تشغل الصف الأعلى في سلم الحضارة على وجه أخص ... » وكان يشير فيخته في قوله هذا إلى الدولة الفرنسية نفسها !

إن المدة التي مرت بين نشر هذه الكلمة وبين حدوث واقعة « يه نا » كانت عبارة عن تسعة أشهر فقط ! وأما المدة التي مرت بين نشر هذه الكلمة وبين إلقاء الخطب الوطنية التي بحثت عنها ، فلم تتجاوز ثلاث السنوات ! ... فإن الوقائع التي حدثت خلال هذه المدة القصيرة اضطرت فيخته إلى الانتقال من الفكرة العالمية المتساهلة إلى النزعة الوطنية المتشددة ، وجعلته من أشد المتعصبين للقومية الألمانية ، ومن أقوى وأنشط الداعين إليها وأما (آرت) فقد اشتهر بأشعاره الوطنية التي أيقظت في نفوس الألمان روح الحماسة والتضحية ، وأوقدت في قلوبهم ضرام النخوة والحمية في تلك الأيام المملوءة بأنواع المصائب والنكبات فاسمحوا لي أن أسوق إليكم نموذجاً من أشعاره الحماسية قال : « أعطوني وطناً حراً ، وأنا أرضى أن أفقد كل شهرتي ، فيصبح اسمي منسياً ، لا يذكر في غير داري ودار جاري ...

« أعطوني بقعة أرض في جرمانيا ، يستطيع فيها المنديليب أن يبرد دون أن يرى بسهم فرنسي ... »
« أعطوني كوخاً حقيراً يستطيع أن يصبح ديكاً فوق حاجزه ، دون أن يقع فريسة في يد فرنسي ... وأنا أصبح عندئذ مثل الديك وأغرد مثل المنديليب بكل فرح وسرور ، ... ولو أفقد كل ما ملكته يداي ، فلم يبق لي شيء يستر جسمي غير قميص يال ... »
تصوروا أيها السادة أن هذا الشاعر الذي أظهر مثل هذا الشعور الوطني الرقيق بهذا الشكل الطريف ، في هذا الشعر الحماسي ، وفي مئات من أمثاله ... هذا الشاعر أيضاً كان بعيداً عن فكرة الوطن والوطنية — بتأثير النزعة العالمية السائدة حوله إذ ذاك — حتى حروب نابليون ... إنه اعترف بذلك هو نفسه ، فقال : « إنني عرفت وطني في ثورة الغضب ، وأحببته في ساعة النكبة ، وآمنت بأنه لا بشرية بلا أم ، ولا أمة بلا وطن حر ... »

أعتقد أن هذين المثالين يكفيان لإظهار التطور العميق الذي حدث في الآراء والنزعات في البلاد الألمانية عقب استيلاء الفرنسيين عليها ، في العقد الأول من القرن التاسع عشر .. نستطيع أن نقول إن الفكرة العالمية فقدت قوتها ونفوذها في ألمانيا تماماً ، وتركت محلها لروح وطنية متأججة ، استمر اضطرابها طول القرن التاسع عشر ..

مع هذا لم تندثر تماماً في سائر البلاد ، بل بعكس ذلك — وجدت في بعضها تربة صالحة لنموها — تحت شكل جديد ، هي فكرة « السلم الدائم العام ... »

فقد تألفت عدة جمعيات تدعو إلى السلم والتآخي ، منذ سنة ١٨١٤ ، وأخذت تسمى لنشر مبادئها بين المفكرين والناس بصور ووسائل شتى : إنها أخذت تدعو إلى توحيد الأوطان ؛ حتى أنها لم تتردد في بعض الأحيان في توجيه حملات عنيفة على الوطنية في سبيل هذه الدعوة .. إن فكرة السلم والتآخي وجدت بهذه الصورة عدداً غير قليل من الأنصار والمريدين ، بين الأدباء والمفكرين ورجال الدين .. وصار هؤلاء بمقدور سلسلة مؤتمرات أممية .. بقصد نشر فكرة السلم والتآخي بين الأمم ..

غير أننا إذا تتبعنا سير انتشار هذه الفكرة ، نجد أن هذا الانتشار لم يجر باطراد ، على وتيرة واحدة — فإن الفكرة كانت

تنتشر انتشاراً لا بأس به منذ من الزمن ثم تنفص وهلة، عند ما تصطدم بالوقائع، وتشهد حدوث حروب جديدة، فتبدد الأحلام المستولية على الأذهان، وتثير صفائن جديدة بين الأمم...

نستطيع أن نجد خير مثال لذلك فيما كتبه وقاله الشاعر الفرنسي العظيم «فيكتور هوجو». انجذب هذا الشاعر إلى فكرة توحيد الأوطان، ونشر أولوية السلم على العالم. فاشترك في مؤتمرات السلم، وألقى في بعضها بعض الخطب، وأرسل إلى بعضها بعض الرسائل؛ وفي كل ذلك أظهر نزوعاً شديداً نحو السلم العام، وإيماناً عميقاً في أمر توحيد الأوطان.. وتحيل في إحدى خطبه المهد الذي ستتحده الدول الأوروبية بأجمعها، والمهد الذي ستصانح فيه الولايات المتحدة الأوربية «مع الولايات المتحدة الأمريكية» من وراء البحار، وتوحد أعمالها لخير البشر العام... كما حلم في المهد الذي ستنتقل فيه المدافع إلى الناحف، وستترك القذائف محلها إلى أوراق التصويت في ندوة عالية، تكون السيادة فيها للمناقشة العلمية والرأي الحر... وتحت تأثير هذه الأحلام وجه الشاعر دعوة حارة لإزالة الحدود والفوارق من بين الأمم، قائلاً: إن رأس البلاء هو الحدود؛ لأن مفهوم الحدود يتضمن الخفر، والخفر يتطلب الخفير، والخفير يستوجب الجيش، والجيش يدعو إلى الحرب... فلتنحذف الحدود.. لكي نرى أولوية السلم سائدة على العالم، وروح الأخوة منتشرة بين البشر...

ومن غريب الصدف أن هوجو كان قد أرسل هذا البيان إلى مؤتمر السلم الذي انعقد في لندن سنة ١٨٦٩، أي قبل نشوب حرب السبعين سنة واحدة فقط! وما كادت الحرب تنشب بين فرنسا وألمانيا، حتى ترك الشاعر هذه الأحلام جانباً وأخذ يبدع سلسلة أشعار حماسية، تتأجج فيها روح وطنية نائرة...

إن هذا الشاعر لم يكن من الشواذ في هذا الباب. بل ظهر له أمثال كثيرون في كثير من البلاد... فعدد غير قليل من المفكرين انجذبوا مدة من الزمن إلى فكرة توحيد الأوطان، ثم عادوا إلى النزعة الوطنية والقومية تحت تأثير الوقائع والحادثات.. لا ننكر أن بعضهم ظل متمسكاً بهذه الفكرة طول حياته، كما فعل «تولستوي» الشهير... فإنه ظل يدعي أن

الوطنية من بقايا اليهود الممجية وأن من يعيش عيشة فكرية حقيقية لا يمكن أن يتعرف بالوطن والوطنية... وظل يدعو الناس إلى نيل النزعات الوطنية مهما كانت أشكالها، وإلى الامتناع عن الحروب مهما كانت الأسباب الداعية إليها... غير أن (روزفلت) الكبير أجاب على آراء «تولستوي» في إحدى خطبه بكلمة طريفة جداً قال:

«نعم، قد يأتي عهد — في أغوار عصور المستقبل البعيد — تفقد فيه الوطنية قيمتها وفائدتها... كما أنه قد يأتي عهد يندثر فيه نظام الأسرة والزواج... غير أنه يجب أن نعرف جيداً أن الرجل الذي لا يفرق بين وطنه وسائر الأوطان — في المجتمع الذي نميش فيه الآن — يكون عنصراً مضرراً، كالرجل الذي لا يفرق بين زوجته وسائر النساء...»

إن دعاة السلم العام والأخوة البشرية الشاملة الذين ظهروا طول القرن التاسع عشر، وفي أوائل القرن العشرين، حتى الحرب العالمية — كانوا يتكهنون بقرب تحقق أحلامهم وأمانهم... غير أن الوقائع والحادثات كانت تأتي على الدوام معاكسة لتلك الأمان والأحلام... كانوا يتكهنون بأن ساحات الحرب ستتحول إلى أسواق تجارية. غير أن الوقائع أتت بنتائج معكوسة لذلك تماماً، لأن الأسواق التجارية أصبحت مزاراً للحروب...

كانوا يقولون بأن المدافع ستنتقل إلى الناحف... ولا ننكر أنه قد حدث شيء من ذلك، فإن المدافع التي كان يعرفها هؤلاء الدعاة انتقلت فعلاً إلى الناحف؛ غير أن ذلك لم يحدث من جراء انتصار فكرة السلم العام، كما أنه لم يؤد إلى تقوية الفكرة المذكورة... بل إنه حدث من جراء اختراع أنواع جديدة من المدافع تفوق قوتها الحربية قوة تأثير المدافع القديمة مئات من الدرجات...

كانوا يوجهون أنواع السهام إلى «الحدود» التي تفصل الدول بعضها عن بعض؛ وكانوا يتمنون زوالها خدمة للسلم العام فقد حدث فعلاً في الحدود التي كانوا يعرفونها، انقلابات عظيمة أدت إلى تبدل عشرات منها وزوال مئات... غير أن كل ذلك لم يحدث على أساس توحيد الأمم بأجمعها، ولا على أساس توحيد

« الأهمية الشيوعية »

إن دعاة هذه « النزعة الأهمية » لم يحلوا بآمال السلم العام ، ولم يحلوا أنفسهم بأمانى الأخوة البشرية الشاملة ... بل على العكس من ذلك آمنوا بضرورة الحرب ، واستعدوا لها ؛ غير أنهم قالوا إن هذه الحرب يجب أن تكون من نوع جديد . يجب أن تنشب بين الطبقات المختلفة لا بين الأمم المختلفة . يجب على عمال العالم أن يتحدوا على اختلاف أوطانهم ليجاروا الرأسماليين مهما كانت قومياتهم ...

إن دعاة الأهمية الشيوعية يريدون تغيير نظام المجتمع الحالى من أساسه ، ويعتقدون أن ذلك لا يمكن أن يتم دون ثورة وحرب ، ويقولون بأن هذه الثورة يجب ألا تنقيد بقيود الوطنية بل يجب أن تعمل ضدها ...

يقول الماركسيون إن الوطنية من وسائل حكم الرأسمالية ، هى من الأسلحة التى تستعملها الرأسمالية لخداع الصغار ، واستخدامهم لأغراضها الخاصة فلا يمكن أن يتأسس النظام الشيوعى ما لم تهدم فكرة الوطنية الخداعة وتحجى الحدود التى تولدت منها ... فالأهمية الماركسية تدعو إلى نبذ الفكرة الوطنية ، وعاربة الرأسمالية ، أبنا كانت ، وبأية واسطة كانت ... لذلك نطلب إلى العمال أن يتحدوا دون أن يلتفتوا إلى الحدود التى أقامتها النزعات القومية الوطنية ، ودون أن يتقيدوا بالروابط التى أوجدتها هذه النزعات ، ولهذا السبب تبدأ دعوة الماركسيين كل يوم بهذه الصيحات :

« يا عمال العالم اتحدوا ... »

ندعو الماركسية جميع عمال العالم إلى الاتحاد ، لأنها تقول بأن وطن العامل هو العمل وحده ... وأما مواطنه الحقيقى فهو العامل الذى يكده مثله مهما كانت قوميته ؛ كما أن عدوه الأسمى هو الرأسمالى الذى يستغله مهما كان الوطن الذى ينتسب إليه ... فمدو العامل الفرنسى مثلاً - ليس الجندى الألمانى أو الانكليزى أو الرومى - بل هو الرأسمالى ، سواء كان من الفرنسيين أو الألمان أو الانكليز أو الروس ... فيجب على جميع عمال العالم أن يتحدوا لمحاربة الرأسماليين على اختلاف أوطانهم وقومياتهم ..

(البقية فى العدد القادم) طابع المصرى

الأمم المتمدة وحدها ... بل حدث من جراء تحقيق النزعات القومية ، وإعادة بناء الدول حسب مقتضيات تلك النزعات ... فقد اتحدت الدويلات الكثيرة التى كانت تنقسم إليها بعض الأمم ؛ فكونت دولة كبيرة : أشد وطنية وأصلب قومية من جميع الدويلات التى اندمجت فيها ... هذا ومن جهة أخرى قد تجزأت بعض الدول الكبيرة التى كانت تتألف من أمم مختلفة النزعات ، وانقسمت إلى عدة دول مستقلة ؛ غير أن ذلك أيضاً حدث بتأثير النزعات القومية ، وأدى إلى تقوية تلك النزعات ...

تجاه هذه النتائج الفعلية فقدت الفكرة العالمية كل ما كان لديها من قوة ؛ فأخذت فكرة السلم العالم ونزعة الأخوة البشرية اتجاهات جديدة يختلف عما كان يقصده دعاة العالمية كل الاختلاف .

هذا الاتجاه الجديد ، هو الدعوة إلى التعاون والتضامن بين الأمم داخل نطاق الوطنية والقومية عاملاً . فلتبق كل أمة متمسكة بوطنيتها على أن تحترم وطنية الأمم الأخرى أيضاً . فلتبق كل أمة مستقلة فى شؤونها على أن تتعاون مع سائر الأمم فى مختلف ساحات النشاط البشرى من العلم والثقافة إلى الاقتصاد والمواصلات ...

إن هذه النزعة الجديدة لم تكن من نوع التمنيات الخالية ، بل هى من النزعات العملية التى أنتجت نتائج باهرة ، وساعدت على تكوين « مؤسسات أممية » كثيرة ... من « اتحاد البرق والبريد الأسمى » إلى « مؤسسة التعاون الفكرى الأسمى » ... ولا سيما بعد الحرب العالمية ...

فستطيع أن تقول لذلك : « إن نزعة الوطنية خرجت سالمة ظافرة من الكفاح المنيق الذى حدث بينها وبين فكرة العالمية بأشكالها المختلفة ... »

غير أن الوطنية - بالرغم من تظلمها على النزعات المادية التى ذكرناها آنفاً - وجدت نفسها منذ مدة ، أمام نزعة معادية أخرى ، أشد خطراً من جميعها . هذه النزعة هى « الماركسية » - نسبة إلى مؤسسها « كارل ماركس » - وبتميز آخر هى :